﴿*إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾ [الحجّ: 38]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذِكْـرُ ما يُـؤْمَـنُ معَهُ التَّمكُّنُ من الحجِّ

في مناسبةِ الآيةِ لِما قبلَها وجوهٌ مُتقاربةٌ:

أحدُها: لمّا بيَّنَ تعالى ما يلزمُ الحجَّ ومناسكَهُ وما فيهِ مِنْ منافعِ الدُّنيا والآخرةِ، وقد ذُكِرَ قبلُ أنَّ الكفّارَ صدّوهم عنه؛ أتبعَ ذلكَ ببيانِ ما يُزيلُ الصَّدَّ، ويُؤمَنُ معَهُ التَّمكُّنُ مِنَ الحجِّ، فقالَ: ﴿*إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾[1].

والثّاني: لمّا ذَكَرَ سبحانَهُ الحجَّ المُذكِّرَ للمهاجرينَ بأوطانِهم، وذَكَرَ ما يُفعَلُ فيهِ مِنَ القُرُباتِ؛ عَظُمَ اشتياقُ النُّفوسِ إلى ذلكَ، وتذكَّرَتْ عُلو المشركينَ الَّذينَ يَصُدّونَ عن سبيلِ اللّهِ والمسجدِ الحرامِ، فأخبرَ سبحانَهُ بأنَّهُ يدافعُ عنِ الَّذينَ آمَنوا[2].

والثّالثُ: الآيةُ جوابٌ لسؤالٍ يَخْطُرُ في نُفوسِ المؤمنينَ ينشأُ من قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الحج: 25]، فإنَّهُ توعَّدَ المشركينَ على صدِّهم عن سبيلِ اللّهِ والمسجدِ الحرامِ بالعذابِ الأليمِ، وبشَّرَ المؤمنينَ المُخبتينَ والمُحسنينَ بما يتبادرُ منهُ ضدُّ وعيدِ المشركينَ، وذلكَ ثوابُ الآخرةِ، وطالَ الكلامُ في ذلكَ بما تَبِعَهُ، فتشوَّفَتْ نُفوسُ المؤمنينَ إلى معرفةِ عاقبةِ أمرِهم في الدُّنيا، وهل يُنتصَرُ لهُم مِنْ أعدائِهم، أو يُدَّخَرُ لهم الخيرُ إلى الدّارِ الآخرةِ، فكانَ المقامُ خليقًا بأنْ يُطَمْئِنَ اللّهُ نُفوسَهم بأنَّهُ كما أعدَّ لهم نعيمَ الآخرةِ هو أيضًا مُدافِعٌ عنهُم في الدُّنيا وناصرُهم[3].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 228، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 514.
(2) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 54.
(3) زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 6/ 116، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 271.

والرابع: أنَّ فاصلةَ الآيةِ السابقةِ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، ومضمونُ هذه الآية وجهٌ من وجوهِ إحسان اللّه إليهم، فأنتجَ الاقترانُ معنًى قرآنيًّا، وهو: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: 60].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُدَافِعُ﴾: المعنى المحوريُّ لـ(دفع) تنحيةُ الشَّيءِ، فالدِّفاعُ: السَّيْلُ العظيمُ؛ لأنَّ بعضَهُ يدفعُ بعضًا[1]، ويُقالُ: تدافعَ القومُ، أيْ: دفعَ بعضُهم بعضًا[2]، والاندفاعُ: المُضي في الأمرِ كائنًا ما كانَ[3]، والضَّيفُ المِدْفَعُ: الَّذي يتدافعُهُ الحيُّ، فيُحيلُهُ ذا على ذا، وهذا على هذا[4]، والدَّفْعُ إذا عُدّي بـ (إلى)؛ اقتضَى معنى الإنالةِ، كقولِهِ تعالى: ﴿فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النّساء: 6]، وإذا عُدّي بـ (عن)؛ اقتضَى معنى الحِمايةِ، كقولِهِ تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾[5].

2) ﴿خَوَّانٍ﴾: (خون) أصلٌ واحدٌ، وهو التَّنقُّصُ في خُفْيةٍ أو لُطْفٍ[6]، يُقالُ: تخوَّنَني فلانٌ حقّي، أيْ: تنقَّصني، ويُقالُ: خانَهُ يَخونُهُ، وذلكَ نُقْصانُ الوفاءِ[7]، والخيانةُ والنِّفاقُ واحدٌ، إلّا أنَّ الخيانةَ تُقالُ باعتبارِ العهدِ والأمانةِ، والنِّفاقَ يُقالُ باعتبار الدّينِ[8]، والخِوانُ: المائدةُ سواءٌ كانَ عليها طعامٌ أم لا، تَصَوَّروا فيهِ الخيانةَ حالَ فَقْدِ الطَّعامِ، بخلافِ المائدةِ[9].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبرُ اللّهُ جلَّ ثناؤُهُ عن معاملتِهِ لأوليائِهِ وأعدائِهِ، فيقولُ: إنَّ اللّهَ يدافعُ عنِ الَّذينَ آمَنوا باللّهِ وبرسولِهِ، ويردُّ عنهُم غائلةَ المشركينَ؛ لأنَّ اللّهَ لا يُحِبُّ كلَّ خوّانٍ - يَخونُ اللّهَ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (دفع).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (دفع).
(3) الخليل، العين: (دفع).
(4) ابن دُرَيْد، جمهرة اللُّغة: 2/ 660، والزَّمخشريّ، أساس البلاغة: (دفع).
(5) الرَّاغب، المُفردات: (دفع).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خون)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (خون).
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خون).
(8) الرَّاغب، المُفردات: (خون).
(9) السَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (خون).

فيخالفُ أمرَهُ ونَهْيَهُ، ويَعْصيهِ ويُطيعُ الشَّيطانَ - كَفورٍ باللهِ جلَّ وعزَّ، جَحودٍ لنِعَمِهِ عندَهُ، لا يعرفُ لمُنعِمها حقَّهُ، فيَشْكُرَهُ عليها[1].

المُـؤمِـنـونَ في حِـمـايـةِ الـلـهِ ورِعايتِه

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ فصلِ الآية عمّا قبلَها:

فُصِلَ قولُهُ جلَّ شأنُهُ: ﴿*إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِما بينَ الكلامَيْنِ مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّ الجملةَ استئنافٌ بيانيٌّ جوابًا لسؤالٍ يَخْطُرُ في نُفوسِ المؤمنينَ ينشأُ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الحج: 25]، فإنَّهُ توعَّدَ المشركينَ على صدِّهم عن سبيلِ اللهِ والمسجدِ الحرامِ بالعذابِ الأليمِ، وبشَّرَ المؤمنينَ المُخبِتينَ والمُحسِنينَ بما يتبادرُ منهُ ضدُّ وعيدِ المشركينَ، وذلكَ ثوابُ الآخرةِ، وطالَ الكلامُ في ذلكَ بما تَبِعَهُ، فتشوَّفَتْ نُفوسُ المؤمنينَ إلى معرفةِ عاقبةِ أمرِهم في الدُّنيا، وهل يُنتصَرُ لهُم مِنْ أعدائِهم؟ أو يُدَّخَرُ لهم الخيرُ إلى الدّارِ الآخرةِ؟ فكانَ المقامُ خَليقًا بأنْ يُطمئِنَ اللهُ نُفوسَهم بأنَّهُ كما أعدَّ لهم نعيمَ الآخرةِ هو أيضًا مُدافِعٌ عنهُم في الدُّنيا وناصرُهم[2].

الـفـصـلُ لـشِـبْـهِ كمالِ الاتِّصالِ

غرضُ التَّوكيدِ بـ﴿*إِنَّ﴾:

الظّاهرُ أنَّ تصديرَ قولِ الحقِّ سبحانَهُ وتعالى: ﴿*إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بكلمةِ التَّوكيدِ: لإبرازِ الاعتناءِ التّامِّ بمضمونِهِ[3]، فإنَّ دِفاعَ اللهِ تعالى عن أوليائِهِ المُؤمنينَ أمرٌ عظيمُ الشَّأنِ، جديرٌ بالعِنايةِ والاهتمامِ، وفي التَّنبيهِ على ذلكَ تقويةٌ لعزائمِ المُؤمنينَ، وحثٌّ لهُم على الصَّبرِ ببيانِ أنَّ اللهَ عزَّ سُلطانُهُ معَهم، ولا يتخلَّى عنهُم، ولا يُسلِمُهم لعدوِّهِ وعدوِّهم، وقيلَ: يحتملُ أنْ يكونَ التَّوكيدُ

إبـــرازُ الاعـتـنـاءِ بمضمونِ الكلامِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 642.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 108، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 271.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 108، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 271.

لتنزيلِ غيرِ المُتردِّدِ منزلةَ المُتردِّدِ؛ لشدَّةِ انتظارِ المؤمنينَ النَّصْرَ، واستبطائِهم إيّاهُ[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ:

مناسبةُ لفظِ الجلالةِ لسياقِ الدِّفاعِ

لمّا كانَ السّياق لتحقيقِ دِفاعِ اللّهِ جلَّتْ قُدرتُهُ عنِ الَّذينَ آمَنوا؛ جيءَ بلفظِ الجلالةِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿*إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ لِما يدلُّ عليهِ لفظُ الجلالةِ من اتِّصافِهِ سبحانَهُ وتعالى بصفاتِ الجلالِ والكمالِ، ومنها القُدرةُ المطلَقةُ الَّتي بها ينصرُ أولياءَهُ على أعدائِهِ، ولِما في لفظِ الجلالةِ مِنْ إدخالِ المَهابةِ في النُّفوسِ، وتثبيتِ قُلوبِ المؤمنينَ، والمعنى: (إنَّ اللّهَ الَّذي لا كُفْءَ لهُ يدافعُ عنِ الَّذينَ آمَنوا)[2]، وكيفَ يخافُ مَنْ كانَ اللّهُ ذو العظَمةِ والكِبْرياءِ مُدافِعًا عنهُ؟ وكيفَ يَغْلِبُ مَنْ كانَ القويُّ العزيزُ خَصْمَهُ؟ وفي اسم الجلالة الدّالِّ على الأُلوهيَّة تعليلٌ في المعنى للدِّفاع، فمِن شأنِ الموحِّدينَ أن يتولّاهم اللّه، وأن يكونَ مولاهم وناصرَهم؛ ثُمَّ في ذِكْرِ وصفِ الإيمان ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ إفصاحٌ بذلك.

غرضُ تقديمِ المُسنَدِ إليهِ:

إفـــادةُ تـقـوّي الحُكْمِ

يدلُّ تقديمُ المُسنَدِ إليهِ ﴿ٱللَّهَ﴾ على المُسنَدِ الفعليِّ المُثبَتِ ﴿يُدَٰفِعُ﴾ في قولِ اللّهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿*إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ على تقوّي الحُكم، وهو دِفاعُ اللّهِ عنِ الَّذينَ آمَنوا؛ لأنَّ الدِّفاعَ قد أُسنِدَ إلى لفظِ الجلالةِ في ﴿*إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ﴾، وفي ﴿يُدَٰفِعُ﴾ ضميرٌ يعودُ على لفظِ الجلالةِ، فيُفيدُ إسنادَ الدِّفاعِ إليهِ سبحانَهُ وتعالى مرَّةً أخرى، فيُفيدُ تقوّي الحُكْم، كأنَّهُ قيلَ: إنَّ اللّهَ يدافعُ عنِ الَّذينَ آمَنوا، إنَّ اللّهَ يدافعُ عنِ الَّذينَ آمَنوا، وفي ذلكَ مناسبةٌ لسياقِ تثبيتِ قُلوبِ المؤمنينَ وتأكيدِ نُصْرةِ اللّهِ لهُم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 271.
(2) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 54.

براعةُ التَّعبير بالمضارعِ ﴿يُدَٰفِعُ﴾:

تـجـدُّدُ الـدِّفـاعِ واستمرارُهُ

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ على أنَّ دِفاعَ اللّهِ تعالى عنِ الَّذينَ آمَنوا شأنُهُ مُتجدِّدٌ مُستمرٌّ، لا ينقطعُ في حينٍ مِنَ الأحيانِ، وهو سبحانَهُ وتعالى ناصرُهم ومُؤيِّدُهم على كلِّ أعدائِهم، وهم في مَعيتِهِ وحِمايتِهِ ورِعايتِهِ على الدَّوامِ، وفي المضارعِ تنبيهٌ لطيفٌ على أنَّ هذا الدِّفاعَ ليس ثابتًا في كلِّ وقتٍ، بل قد ينقطعُ في وقتٍ ما ابتلاءً للمؤمنين وللكافرين معًا، ولحكمةٍ يُريدها سبحانه من نحو تمحيصِ أهلِ الإيمانِ، وإمهالِ أهلِ الكفرانِ.

توجيهُ القراءاتِ في: ﴿يُدَٰفِعُ﴾:

ثـــراءُ المـعـانـي بتعدُّدِ القراءاتِ القرآنيَّةِ

قرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو ويعقوب: ﴿يَدْفَعُ﴾ بفتحِ الياءِ والفاءِ وإسكانِ الدّالِ مِنْ غيرِ ألفٍ، وقرأ الباقونَ: ﴿يُدَٰفِعُ﴾ بضمِّ الياءِ وفتحِ الدّالِ وألفٍ بعدَها معَ كَسْرِ الفاءِ[1]، ومَنْ قرأ: ﴿يُدَٰفِعُ﴾ فمعناهُ: يُبالِغُ في الدَّفْعِ عنهُم كما يُبالِغُ مَنْ يُغالِبُ فيهِ؛ لأنَّ فعلَ المُغالِبِ يجيءُ أقوى وأبلغَ[2]، والصّيغةُ تدلُّ على مقابلةِ الفعلِ بمثْلِهِ، فاللّهُ يدفعُهم وهم يُقابِلونَ أيضًا بالمدافعةِ، فيَحدُثُ تدافعٌ وتفاعلٌ من الجانبَيْنِ[3]، ويحتملُ أنْ تكونَ صيغةُ المفاعلةِ للدَّلالةِ على تكرُّرِ الدَّفْعِ، فإنَّها قد تُجرَّدُ عن وقوعِ الفعلِ المُتكرِّرِ من الجانبَيْنِ، فيبقى تكرُّرُهُ كما في الممارسةِ، فالمعنى: يبالغُ في دَفْعِ غائلةِ المُشركينَ وضَرَرِهم - الَّذي من جملتِهِ الصَّدُّ عن سبيلِ اللّهِ - مبالغةَ مَنْ يُغالِبُ فيهِ، أو يدفعُها عنهُم مرَّةً بعدَ أخرى بحسَبِ تجدُّدِ القصدِ منهُم إلى الإضرارِ بالمسلمينَ، كما في قولِهِ ﷻ: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾

(1) ابن الجَزَريّ، النّشر: 2/ 326.

(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 159، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 228، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 108.

(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16/ 9830.

[المائدة: 64]، وحجّة من قرأ بغير ألف أنه جعل الفعل من واحد - وهو الله جل ذكره - يدافع عمن يشاء[1].

نكتةُ حذفِ مفعولِ ﴿يُدَٰفِعُ﴾:

حـذفُ المفعـولِ طـريـقٌ إلى لطائفَ لا تُحصى

ذُكِرَ في قولِ اللهِ تعالى ذِكْرُهُ: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: أنَّ اللهَ يدافعُ عن الَّذينَ آمَنوا، ولم يُذْكَرْ ما يدفعُهُ؛ تشييعًا للمفعول وتعميمًا له، وفي التَّعميم إعظامٌ لقوَّة الله وقهرِه وغلبتِه، فلا شيءَ يقوم أمامَ دفعِه ودفاعِه.

وأولى العموم بإيقاع الفعل ما جاء موصوفًا بعد ذلك في قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾[2]، ففي هذا الإتباعِ إيذانٌ بمفعولِ ﴿يُدَٰفِعُ﴾ المحذوفِ، أيْ: يُدافِعُ الكافرينَ الخائنينَ، ويدلُّ الحذف بقرينة السّياق على الإشارة إلى عِظَمِ محبَّةِ الله مَنْ يدافِع عنهم مِنَ الَّذين آمنوا من خلال وقوعِ المدافعة على مَن نُفيتْ عنهمُ المحبَّة مِنَ الخوَنَة الكفَرَة مع ما في تركِ ذِكْر المفعول من التَّحقير؛ تمهيدًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾.

ويجوز أن يُرادَ بالحذفِ إثباتُ الفعل في نفسه من غير نظرٍ إلى مفعولٍ، أيْ: مِن شأنه تعالى أن يكون منه دفعٌ ودفاع عن الَّذين آمنوا؛ لأنَّه تعالى يحبُّهم.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

الإيماءُ إلى وجهِ بناءِ الخبرِ وأنَّ دِفاعَ اللهِ عنهُم لأجلِ إيمانِهم

التَّعبيرُ بالموصولِ في قولِ الحقِّ جلَّ شأنُهُ: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ لِما فيهِ مِنَ الإيماءِ إلى وجهِ بناءِ الخبرِ، وأنَّ دِفاعَ اللهِ عنهُم لأجلِ إيمانِهم[3]، كأنَّهُ قيلَ: إنَّ اللهَ يدافعُ عنهُم؛ لأنَّهم آمَنوا، وإنَّما ذكَرَ القرآنُ الإيمانَ؛ لأنَّه أمُّ مقامات الطّاعات وأوَّلُها، فإذا

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 108، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 154، ومكّي، الكشف: 2/ 120.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 228، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 515.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 271.

كان اللّه يدفع، ويدافِع عن الَّذين آمنوا؛ فكيف بالمحسنين الَّذين قال فيهم: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؟

نكتةُ التَّعبيرِ بـ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

بـيـانُ قـيـمـةِ الإيمانِ عندَ اللهِ سبحانَهُ وتعالى

عُبِّرَ بالموصولِ وصيغةِ الماضي في قولِهِ ﷻ: ﴿*إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، ولم يقلْ: (إنَّ اللّهَ يدافعُ عنِ المؤمنينَ) بصيغةِ اسمِ الفاعلِ؛ لأنَّهُ إذا دافعَ عمَّنِ اتَّصفَ بمُطلَقِ الإيمانِ - كما تدلُّ عليهِ صيغةُ الماضي - فأحرى أنْ يُدافعَ عمَّنْ ثبتَ لهُ الإيمانُ الكاملُ، كما تدلُّ عليهِ صيغةُ اسمِ الفاعلِ[1]، وفي ذلكَ ترغيبٌ لكلِّ مَنْ وقعَ منهُ وصفُ الإيمانِ في الخارجِ[2]، ومبالغةٌ في بيانِ قيمةِ الإيمانِ عندَ اللّهِ سبحانَهُ وتعالى.

إعرابُ الجملةِ وعلَّةُ فصلِها:

الـجـمـلـةُ استئنافٌ تعليليٌّ فُصِلَتْ عمّا قبلَها لكمالِ الاتِّصالِ بها

لمّا خصَّ سبحانَهُ وتعالى المؤمنينَ بدفاعِهِ عنهُم ونُصرتِهِ لهُم؛ جعلَ العلَّةَ في ذلكَ أنَّهُ لا يُحِبُّ أضدادَهم، وهم الخَوَنةُ الكَفَرةُ الَّذينَ يَخونونَ اللّهَ والرَّسولَ، ويَخونونَ أماناتِهم، ويَكفُرونَ نِعَمَ اللّهِ[3]، فقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ واردٌ على وجهِ الاستئنافِ؛ جوابًا لِما عسى يُسألُ عن سببِ الدِّفاعِ عنِ الَّذينَ آمَنوا، فيكونُ المعنى: (إنَّ اللّهَ إنَّما يَنْصُرُ المؤمنينَ؛ لأنَّهُ يُبْغِضُ أضدادَهم)[4]، وذِكْرُ هذا التَّعليلِ يُفْهِمُ عكسَه، وإذا كان اللّه يُدافع عن الَّذين آمنوا، ويدفع عنهم؛ كان مُحِبًّا لهم، وإذا كان مُحبًّا لهم؛ كان مُبغضًا وغير مُحبٍّ لأضدادهم، فبَيْنَ هذه الجملةِ وما قبلها كمالُ اتِّصالٍ مِن نوعِ التَّوكيدِ المعنويِّ الخفيِّ؛ فلهذا غابت الواو، فلم يقلْ تعالى: (وإنَّ اللّهَ لا يحبُّ كلَّ خوّانٍ كفور).

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 190.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 54.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 159، والنّسفيّ، مدارك التَّنزيل: 2/ 442.
(4) ابن التّمجيد، حاشية على البيضاويّ: 13/ 72.

غرضُ التَّوكيدِ بـ﴿إِنَّ﴾:

في التَّوكيدِ تمكينٌ لمحبَّته تعالى أهلَ الإيمان وبغضهِ أهلَ الكفران

جيءَ بالتَّوكيدِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ للاعتناءِ بمضمونِ الجملةِ، ولزيادةِ المبالغةِ في تأكيدِ الجملةِ السّابقةِ؛ لأنَّ هذهِ الجملةَ مُقرِّرةٌ لمضمونِ الجملةِ الأولى، فإنَّ المدافعةَ مِنَ اللهِ لهُم عن عبادِهِ المؤمنينَ مُشعِرةٌ بأنَّهم مُبْغَضونَ إليهِ غيرُ محبوبينَ لهُ[1]، ففي التَّوكيدِ تمكينٌ لمحبَّته تعالى أهلَ الإيمان، وعدم محبَّتِه أهلَ الكفران.

نكتةُ إظهارِ لفظِ الجلالةِ:

تقويةُ استقلالِ الجملةِ

الظّاهرُ أنْ يُقالَ: (إنَّهُ لا يُحِبُّ كلَّ خوّانٍ كَفورٍ)، لتقدُّمِ لفظِ الجلالةِ في قولِهِ سبحانَهُ وتعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، ولكنْ عُدِلَ عنِ الإضمارِ إلى الإظهارِ، فقيلَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾؛ لِما في التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ مِنَ الملاءمةِ لسياقِ بُغْضِ الكَفَرةِ، الَّذينَ كَفَروا بذي الجلالِ والكمالِ، الَّذي لا ينبغي الكفرُ بهِ؛ ولأنَّ إظهارَ لفظِ الجلالةِ يُقوّي استقلالَ الجملةِ، فتكونُ بمنزلةِ المَثَلِ السّائرِ، وإظهارُ اسمِ الجلالةِ من مظاهرِ توكيدِ الجملةِ المُمَكِّنِ لمحبَّةِ اللهِ لأهلِ الإيمانِ بإلاهيتِهِ والإحسانِ في أُلوهيتِهِ، ولعدمِ محبَّتِهِ لأهلِ الإساءةِ والكفرانِ.

بلاغةُ الكنايةِ في: ﴿لَا يُحِبُّ﴾:

في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ كنايةٌ لطيفةٌ، وذلكَ أنَّ نَفْيَ المحبَّةِ كنايةٌ عنِ البُغْضِ[2]، كأنَّهُ قيلَ: إنَّ اللهَ يُبْغِضُ كلَّ خوّانٍ كَفورٍ.

علَّةُ استعمالِ المضارعِ المنفيِّ ﴿لَا يُحِبُّ﴾:

استمرارُ انتفاءِ المحبَّةِ وتجدُّدُهُ

عُبِّرَ بالمضارعِ المَنفيِّ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 540، وأبو زهرة التّفاسير: 9/ 4990.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 108.

كَفُورٍ﴾؛ لأنَّ المضارعَ للتَّجدُّدِ والاستمرارِ، وإذا دخلَ عليهِ النَّفْيُ؛ أفادَ استمرارَ الانتفاءِ وتجدُّدَهُ، والمعنى: (إنَّ اللّهَ لا يُحِبُّ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ كلَّ خوّانٍ كَفورٍ)، وفي المضارعِ المنفيِّ ﴿لَا يُحِبُّ﴾ تنبيهٌ لطيفٌ على أنَّ استمرارَ عدمِ الحبِّ وتجدُّدَه قد ينقطعُ بدخولِ الخائنِ الكافرِ في زُمرةِ المحبوبينَ أهلِ الإيمانِ والإحسانِ والوفاءِ للرَّحمن.

دلالةُ استعمالِ ﴿كُلَّ﴾ في سياقِ النَّفْيِ:

عـمـومُ نَـفْـيِ محبَّةِ اللهِ عن جميعِ الخائنين الكافرينَ

يُفيدُ لفظُ ﴿كُلَّ﴾ في سياقِ النَّفْيِ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ عُمومَ نَفْيِ محبَّةِ اللّهِ عن جميعِ الخائنينَ الكافرينَ؛ لعُمومِهم في الخيانةِ والكفرِ آحادًا وجماعاتٍ، فليسَ منهُم إلّا خوّانٌ كَفورٌ[1]، ولا يُتوهَّمُ مِنْ قولِهِ: ﴿لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ﴾ أنَّهُ يُحِبُّ بعضَ الخوَنَةِ الكَفَرَة؛ لأنَّ كلمةَ ﴿كُلَّ﴾ اسمٌ جامدٌ لا يُشعِرُ بصفةٍ، فلا يُتوهَّمُ توجُّهُ النَّفْيِ إلى معنى الكلّيةِ المُستفادِ مِنْ كلمةِ ﴿كُلَّ﴾[2].

بلاغةُ صيغةِ المبالغةِ في الوصفَيْنِ:

خيانةُ العظيمِ أمرٌ عظيمٌ

عُبِّرَ بصيغةِ المبالغةِ في قولِهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾، ولم يقلْ: (إنَّ اللّهَ لا يُحِبُّ كلَّ خائنٍ كافرٍ)؛ لأنَّهُ في حقِّ المشركينَ، وهم مُبالِغونَ في الخيانةِ؛ لا للإشعارِ بمحبَّةِ الخائنِ والكافرِ[3]، ولأنَّ أصلَ معنى خيانةِ أمانةِ اللّهِ وكُفْرانِ نِعْمتِهِ لا يكونُ حقيرًا، بل هو أمرٌ عظيمٌ[4]، فالخيانةُ تتضمَّنُ مخالفةَ الفِطْرةِ، وعدمَ طاعةِ أوامرِهِ ونواهيهِ، وعِبادتَهم أحجارًا وإشراكَهم معَ اللّهِ، وخيانةَ المؤمنينَ ونَكْثَ العُهودِ، كما كانَ يفعلُ اليهودُ، وكذلكَ الكَفورُ هو الَّذي أشركَ، وسيطرَتْ عليهِ الأوهامُ، وكفرَ بنعمةِ اللّهِ تعالى، وافترَى على اللّهِ سبحانَهُ، فادَّعى أنَّ اللّهَ حرَّمَ، والحالُ أنَّهُ ما حرَّمَ، وأنَّهُ أحلَّ،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4991، واطفيش، تفسير اطفيش: 6/ 319.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 272.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 108.
(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 298.

والحالُ أنَّهُ ما أحلَّ[1]، إلى غير ذلك ممّا يقتضي المبالغةَ في وصفهم بالكفر والخيانةِ؛ إعظامًا لجريمة فعلِهم، وتشنيعًا لقبح صنيعهم.

فائدةُ وصفِ الخوّانِ بالكَفورِ:

الكفرُ ناشئٌ أصلُهُ من الخيانة مُنشئٌ لألوانٍ من قبيحِ الخيانات

وُصِفَ الخوّانُ بالكَفورِ في قولِ الحقِّ سبحانَهُ وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾، ولم يجئِ التَّرتيبُ بالعكس: (إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كلَّ كَفورٍ خوّانٍ)؛ إشارةً إلى أنَّ مَنْشأ الكفرِ هو الخيانةُ ونَقْضُ عهدِ التَّوحيدِ، ولِما في تأخيرِ ﴿كَفُورٍ﴾ مِنْ مراعاةِ ملاءمةِ فاصلةِ الآيةِ لِما بعدَها.

وقد يكون المقصودُ في الأصل الوصفَ ﴿خَوَّانٍ﴾، ويكون الوصفُ: ﴿كَفُورٍ﴾ تعليلًا له، مِن تمامه - إذا روعي مطلَعُ السّياق - قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الحج: 25]، فخيانةُ أهلِ الكفر أهلَ الإسلام والإيمان، ونقضُ العهد معهم بإخراجهم من المسجد الحرام، وصدُّهم عنه؛ إنَّما سببُه رسوخُهم وعَراقتُهم في الكفر وتعصُّبُهم له.

بلاغةُ المُقابلةِ في الآيةِ:

قُرِنَ الدِّفاعُ عن المؤمنينَ ببُغْضِ الكافرينَ لإظهار عِزِّ الله ورحمتِه

في قولِه جلَّ سلطانُهُ: ﴿*إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ مقابلةٌ لطيفةٌ، حيثُ قوبِلَ الدِّفاعُ عنِ المؤمنينَ ببُغْضِ الكافرينَ، وقوبِلَ وصفُ الإيمانِ بوصفَيِ الخيانةِ والكفرِ؛ ليكونَ السّامعُ أمامَ صورتَيْنِ متقابلتَيْنِ، إحداهما يظهرُ فيها حبُّ اللهِ لأوليائِه المؤمنينَ، ودِفاعُهُ عنهُم بلُطفِه ورحمتِه، والأخرى يظهرُ فيها بُغْضُهُ لأعدائِه الخَوَنةِ الكَفَرةِ، المستلْزِمُ هزيمتَهم وإذلالَهم بقَهرِه وعِزَّته.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4990.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والثلاثون،
سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 34 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-76-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 34 : المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-76-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-3990244 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»